

آيات التحدي والإعجاز في القرآن الكريم

محمد عبد التواب حامد

أولاً: التحدي بالقرآن:

نزل القرآن بلسان عربي مبين نزل في بيئة عربية عامرة بأهل الفصاحة واللسان، وأصحاب البلاغة والبيان. جاء القرآن في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجداد والإتقان في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محسودة للتفوق في هذه الناحية. جاء يقول: إن ما جاء به من عند الله هو الحق، وأن المشركين في ضلال مبين، جاء يسفه أحلامهم ويبطل معبوداتهم ويضلل آباءهم. جاء به رسول يقول: إن حجتي أن الله أنزل عليّ كتاباً عربياً مبيناً - تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه - لا تستطيعون أن تأتوا بمثله ولا بأقصر سورة منه.

جاء التحدي بالقرآن صريحاً في كتاب الله الكريم، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِنُورِ رَبِّيهِمْ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽¹⁾ وأخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم آية من آياته وعلم من أعلامه، وأنه كافٍ في الدلالة على صدق من نزل عليه وعلى نبوته، يقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقال عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁽²⁾. وهذا الكتاب من دون

1 - سورة يونس، الآية : 38.

2 - سورة العنكبوت، الآيتان: 50، 51.

الكتب السماوية والأرضية هو وحده الذي انفرد بتحدي الخلق وإثبات هذا التحدي فيه، وقرر عجز الخلق عن الإتيان بمثله أو بسورة منه. وقد نزلهم الله تعالى في التحدي على ثلاث مراتب⁽³⁾:

المرتبة الأولى:

بالقرآن كله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤﴾. "والتحدي في هذه الآية واضح، فقد طلب من المخاطبين أن يأتوا بحديث مثل القرآن إن كانوا صادقين في زعمهم أن محمداً تقول القرآن الكريم على الله، وتكلف الإتيان به من نفسه، ونسبه إلى الله، ومحمد بين أظهرهم بشر مثلهم أمي من أنفسهم، لا يقرأ ولا يكتب، ولا جلس إلى معلم، ولا ثاقف العلماء، ولا ثاقف الحكماء والفلاسفة. فعجزهم عن الإتيان بحديث مثله دليل على أنه ليس في قدرة المخلوقين"⁽⁵⁾.

المرتبة الثانية:

بعشر سور منه، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرْتَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾. والمعنى: "أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكة: إن محمداً قد افترى هذا القرآن؟ قل لهم أيها الرسول: إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم، لا تدعون أنها من عند الله، فإنكم أهل اللسن والبيان، والمران على المفاخرة بالفصاحة والبلاغة،

3- ذكرنا هنا مراتب التحدي، ولم نقصد الترتيب الزمني لآيات التحدي، فإن فيه خلافاً بين العلماء، فبعضهم يذهب إلى أن آية التحدي بالسورة الواحدة في يونس نزلت بعد التحدي بالعشر سور في هود، ويذهب صاحب المنار إلى أن آيات التحدي لم يكن مراعى بها الترتيب التاريخي في مخاطبة المشركين، كما زعم جمهور المفسرين، بل ذكر كل منها بمناسبة سياق سوره، فسورة الطور التي فيها (الآية 23) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤﴾، وهو تحدُّ بجملته - قد نزلت بعد سورتي يونس وهود اللتين تحداهم فيها بالعشر بعد الواحدة. وسورة الإسراء نزلت قبلهن وفيها ذكر عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله (الآية 88)، ولكنه لم يكن تحدياً. وكان آخر ما نزل في التحدي آية سورة البقرة (الآية 23) وهو تحدُّ للمرتابين فيما نزله الله على عبده بأن يأتوا بسورة من مثله. إذ كان نزولها في السنة الثانية للهجرة. انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، دار المعرفة، بيروت، ط 2، 44/12.

4- سورة الطور، الآيتان: 33-34.

5- محمد الصادق إبراهيم عرجون، القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية 1410هـ/1989م، ص 149.

6- سورة هود، الآية: 13.

وملكات الشعر والخطابة، ولم يسبق لي شيء من ذلك في هذا العمر الطويل الذي عشته بينكم، وهو أربعون سنة، فإن كان من جنس كلام البشر فأنتم به أجدر، وإن كانت أخباره عن الله تعالى وعن عالم الغيب عنده، وقصص عن الرسل وأقوامهم مفتريات فأنتم على مثلها أقدر، فإنكم تعلمون أنني أصدقكم لساناً لم أكذب على بشر قط، فكيف أفترى على الله عز وجل؟ وإن كنتم تزعمون أن لي من يعينني على وضعه ممن لا وجود لهم بالفعل ولا بالإمكان فادعوا من استطعتم ممن تعبدون غير الله، ومن جميع خلق الله ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر، ولتكن مثله مفتريات، إن كنتم صادقين في دعواكم" (7).

وهذه الآية تثبت أن إعجازهم كان بالفصاحة والأسلوب مع قدرتهم، لا بالصرفة ولا بغيرها، ويؤكد أنه تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، والافتراء سهل لا يضيقون به، ولكن أين لهم مثل هذا النظم والأسلوب؟
المرتبة الثالثة:

بسورة واحدة، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (8). والمعنى: "إن ادّعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله وقتلتم كذباً وميناً: إن هذا من عند محمد. فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان" (9)، إن كنتم صادقين.

وقال عز وجل: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (10). وإن كنتم - أيها الناس أي الكفرة - في ريب مما نزلنا: وعبر عن كون الريب بكلمة: "إن" للإكفرين. على عبدا: يعني محمداً صلى الله عليه وسلم. فأتوا بسورة من مثله: يعني من مثل القرآن. قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي، ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن

7- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): 31 / 12 (بعض تصرف).

8- سورة يونس، الآية: 38.

9- الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مطبعة الاستقامة، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1375 هـ / 1956 م: 2 / 417.

10- سورة البقرة، الآيتان: 23، 24.

البصري، وأكثر المحققين⁽¹¹⁾، وقال بعضهم: "من مثل محمد صلى الله عليه وسلم يعني من رجل أمي مثله"، والصحيح هو الأول، لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾⁽¹²⁾.

﴿ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾: المعنى: واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فإنكم لا تستطيعون ذلك. قال ابن عباس: شهداءكم أعوانكم، وقال السدي عن أبي مالك: شركاءكم أي قوما آخرين يساعدونكم على ذلك، أي استعينوا بأهنتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم، وقال مجاهد: وادعوا شهداءكم قال ناس يشهدون به يعني حكام الفصحاء⁽¹³⁾.

﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾: في دعواكم أن عندكم فيه ريبا، وإنما يصدق المرتاب في ريبه إن خفيت الحجة وغلبت الشبهة، وكان جادا في النظر.

﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾: ولن لنفي التأييد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى وهي أنه أخبر خيراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الأبدين ودهر الدهارين، وكذلك وقع الأمر ولم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين⁽¹⁴⁾.

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾: والمراد بالحجارة الأصنام، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ... وقال بعضهم في تفسير "وقودها": إن الناس بأعمالهم وعبادة بعضهم بعضاً وانحرافهم عن صراط الحق المستقيم، والحجارة

11 - الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 59 / 1، وقال صلاح الخالدي، من مثله، أي من بيانه، والمعنى "فأتوا بسورة

بيانه وأسلوبها رفيع هو من مثل بيان وأسلوب القرآن في سموه وروعته". صلاح عبدالفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1421 هـ/ 2000 م، ص 60.

12 - الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 60 / 1.

13 - انظر: المصدر السابق، 59 / 1.

14 - المصدر السابق، 60 / 1.

بعبادة الناس لها - سببان في إيجاد النار وإعدادها لهم، فبذلك كانوا الوقود الذي تضرم به النار⁽¹⁵⁾.
فنفي القدرة على ذلك بقضية عامة وأمر حتم لا تردد فيه. فدللت الآيات على أن التحدي وقع بالقرآن كله، وبعشر سور مثله، وبسورة واحدة. وهذا هو النهاية في بلوغ التحدي.
فقطع لهم أنهم لن يفعلوا، ولو استعانوا بمن شاءوا، وهذا القطع يستحيل أن يصدر من إنسان عاقل يعلم ما عليه البشر، وخاصة العرب، من التفاوت في القدرة على التأليف والإبداع، ولغلبة الظن أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته، بل لا يصدر مثل هذا التحدي إلا من الله تعالى خالق القوي والقدرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ يدل على إعجاز القرآن وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه أربعة:

أحدها: أنا نعلم بالتواتر أن العرب كانوا يعادونه صلى الله عليه وسلم أشد المعاداة، ويتهاكون في إبطال أمره، وفراق الأوطان والعشيرة وبذل النفوس والمهج منهم من أقوى ما يدل على ذلك، فإذا انضاف إليه مثل هذا التقريع وهو قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فلو أمكنهم الإتيان بمثله لأتوا به، وحيث لم يأتوا به ظهر كونه معجزاً.

ثانيها: أنه صلى الله عليه وسلم كان متهماً عندهم فيما يتعلق بالنبوة، فقد كان معلوم الحال في وفور العقل، فلو خاف صلى الله عليه وسلم عاقبة أمره لتهمة فيه - حاشاه عن ذلك - لم يبالغ في التحدي إلى هذه الغاية.

ثالثها: أنه لو لم يكن قاطعاً بنبوته ما قطع الكلام قطعاً، وجزمه قد دل على صدقه.

رابعها: أن قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ تأكيد ببلغ في نفي المستقبل إلى يوم الدين، وهو إخبار بالغيب وقد وقع كما قال صلى الله عليه وسلم؛ لأن أحداً لو عارضه لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه عادة لا سيما والطاعنون فيه صلى الله عليه وسلم أكثف عدداً من الذابيين عنه، وإذا لم تقع المعارضة إلى الآن غلب على الظن بل حصل الجزم أنها لا تقع أبداً⁽¹⁶⁾.

وقد تكرر هذا التحدي كما تقدم، وتلقاه المنكرون عاجزين ووقفوا تجاهه صاغرين، وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين. يقول سيد قطب: "إن في هذا القرآن سرّاً خاصاً يشعر به كل من يواجهه

15 - انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): 1/ 197.

16 - النيسابوري، غرائب القرآن وورغائب الفرقان، على هامش جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر بن جرير

الطبري، دار المعرفة، بيروت، 1406 هـ/ 1986 م: 1/ 188 (ببعض تصرف).

نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. إنه يشعر بسُلطان خاص في عبارات هذا القرآن. يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن. يدركه بعض الناس واضحاً ويُدرکه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود. هذا العنصر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهى العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هى شىء آخر وراءها غير محدود؟ ذلك سر مودع فى كل نص قرآنى، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء، ثم تأتى وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير فى بناء القرآن كله" (17).

ويجدر بنا أن نقف مع آيات التحدي التي وردت في السور الأربعة، لنستخلص أهم دلالاتها ونُسجّل أهم إيجاباتها لأهمية ذلك فى فهم التحدي والمعاجزة والعجز وإعجاز القرآن الكريم، وبيانها ما يأتى:

"أولاً: شملت آيات التحدي القرآن المكي والمدني على السواء، فهي فى سور الطور ويونس وهود المكية، وفى سورة البقرة المدنية.

ثانياً: كانت آيات التحدي الأربع تطبيقاً عملياً للخبر الصادق فى سورة الإسراء حيث أخبر الله عن عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثل القرآن، ولما تحدى الله الكفار فى آيات التحدي وعجزوا عن معارضة القرآن، دل ذلك على تحقيق الخبر الصادق فى سورة الإسراء.

ثالثاً: وردت الآيات كلها فى سياق واحد، هو النقاش مع الكافرين فى موضوع النبوة والرسالة والقرآن.

رابعاً: كان يسبق آية التحدي الحديث عن تشكيك الكافرين فى القرآن، وزعمهم أنه ليس كلام الله، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم افتراه ونسبه إلى الله كذباً، فتأتى آية التحدي لإبطال هذا الزعم وإزالة هذا الشك.

خامساً: كان يتبع آية التحدي إثبات مصدر القرآن وتقرير أنه كلام الله، أوحى به إلى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

سادساً: كان التحدي فى الآيات لإثبات عجز الكفار عن الإتيان بالمطلوب، وإثبات العجز ليس هدفاً

بحد ذاته، وإنما هو وسيلة إلى غاية سامية، وهي إثبات أن القرآن كلام الله وأن محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإيمان الكفار بذلك ودخولهم في الإسلام، قال تعالى: ﴿ فَآتُوا يُسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (18).

سابعاً: السماح للكافرين بدعوة من يريدون، والاستعانة بمن يستطيعون من أعوانهم ومساعدتهم وشهادتهم، وعدم التقصير في محاولة معارضة القرآن، والهدف من هذا هو إثبات عجزهم عن المعارضة، وهو دليل عملي على أن القرآن كلام الله.

ثامناً: تقرر آيات التحدي عجزهم عن المعارضة وتؤكد هزيمتهم في هذا التحدي، فإما أن يصدّقوا بالحقيقة القرآنية ويوقنوا بعجزهم عن المعارضة، وإما أن لا يصدّقوا فعليهم أن يحاولوا الإتيان بالملبوع، وإن حاولوا فسوف يعجزون لا محالة، ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَٰكِن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (19).

تاسعاً: جزم القرآن بعجزهم عن المعارضة تحدّ آخر لهم ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَٰكِن تَفْعَلُوا ﴾ (20). "ومن المعلوم أن التحدي بالسورة الواحدة، ولو كانت قصيرة، لم يكن في أول آية نزلت من القرآن، بل كان بعد سور كثيرة منه، وبعد أن وصل خبره إلى العرب قاصيها ودانيها، وقرعت آيات المعارضة أسماعهم، وتواترت بها الأخبار بينهم وسارت بها الركبان بحيث لا يسع ادعاء جهلها، ودواعي المعارضة موجودة فيهم: ففي خاصتهم بما يأنسونه من تأهلهم لقول الكلام البليغ وهم شعراؤهم وخطبائهم، وكانت لهم مجامع التقاوت ونوادي التشاور والتعاون، وفي عامتهم وصعاليكهم من يجرّضهم على حث خاصتهم لدفع مسبة الغلبة عن قبائلهم ودينهم والانتصار لأهلهم وإيقاف تيار دخول رجالهم في دين الإسلام، مع ما عرف به العربي من إباء الغلبة وكراهة الاستكانة، فما أمسك الكافة عن الإتيان بمثل القرآن إلا لعجزهم عن ذلك، وذلك حجة على أنه منزل من عند الله تعالى، ولو عارضه واحد أو جماعة لطاروا به فرحاً وأشاعوه وتناقلوه، بل لوجب أن ينقل على وجه يظهر كظهور نقلهم للقرآن وتحديه به صلى الله عليه وسلم، ولكان من يعادي وينافس يديم نقله وحفظه كالقرآن، وكان يجب أن يكون ظاهراً من قبل، وفي هذه الحال، فإذا لم يحصل نقل المعارضة علمنا أنه لا أصل لها، بل لو قيل: إن

18 - سورة هود، الآية: 14.

19 - سورة البقرة، الآية: 24.

20 - صلاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص 56.

الدواعي إلى نقل المعارضة أقوى لو كانت منها إلى نقل القرآن لصح ذلك، لأن التنافس في المعارضة أقوى منها في الابتداء، وهذا متعالم من أحوال الأمور؛ فالمبتدئ بالشيء لا تكون دواعيه كدواعي من ينافس في المعارضة، وكذلك فيجب نقله أقوى من نقل المبتدأ، لأن العادة جارية في نقل الشيء أنه في قوة الدواعي بحسب قوته في حصوله ووجوده، ومتعالم من حال القوم أنهم بلغوا النهاية فيما يتصل بإبطال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى لم يبق ضرب من ضروب الدواعي إلا وحصلت فيهم، فلا بد من أن تكون حالهم في المعارضة وحرصهم عليها أقوى من حال القرآن فكذلك القول في النقل.

فإن قيل: لعل المعارضة وقعت ولم تنقل. قلنا: إن جؤزوا هذا فليجؤزوا أنه قد كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآن آخر، أعظم حالاً من هذا القرآن، حتى صار لعظم حاله بحيث لا يشك أحد من الفصحاء أنه مما لا تمكن فيه معارضة ومساواة، ولم ينقل، وإن كان قد نقل هذا القرآن، بل كان يجب أن يجؤزوا في زمانه، من ادعى النبوة وظهرت عليه المعجزات الباهرة، ونسخ شريعته، ودل على إبطال أمره، ولم ينقل شيء من أمره، وبطلان ذلك يقتضي بطلان القول بكون المعارضة، وأنها لم تنقل، لأن الطريقة في بطلانها واحدة. هذا والقوم اعتادوا تناقل أقوال بلغائهم من قبل أن يغيرهم التحدي فما ظنك بهم لو ظفروا بشيء منه يدفعون به عنهم هذه الاستكانة وعدم العثور على شيء يدعى من ذلك يوجب اليقين بأنهم أمسكوا عن معارضته⁽²¹⁾.

فالتحدي بالقرآن متواتر وعجز المتحدين به أيضاً متواتر، إذ لو صدرت منهم معارضة لذلك لنقل واشتهر وتواتر، بل كان أشهر من القرآن نفسه. فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة منه متواتر بتواتر القرآن، وتواتر آياته بينهم، وتواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتاسمهم الوسائل قريبتها وبعيها لإبطال دعواه، وتكذيبه في الإخبار عن الله وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم، وكان منهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناواته، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته وانهاوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع له وتماسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم، فسكوتهم عن المعارضة مع توفر دواعيهم عليها من أعظم الحجج على عجزهم عن الإتيان بمثله.

21- انظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984م: 1/343؛ القاضي عبدالجبار المعتزلي،

المغني في أبواب التوحيد والعدل، الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1380هـ/1960م، (سلسلة

تراثنا، الإدارة العامة للثقافة، مصر): 16/254.

"إن حكمة هذا التحدي وذكره في القرآن، إنها هي أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللدُّ والفصحاء اللسن، وهم كانوا في العهد الذي لم يكن للغتهم خير منه، ولا خير منهم في الطبع والقوة، فكانوا مظنة المعارضة والقدرة عليها - حتى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن مُؤلِّد أو أعجمي أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة، فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله وأنه غير معجز، وأن عسى أن لا يعجز عنه إلا الضعيف وبالله من سمّو هذه الحكمة وبراعة هذه السياسة التاريخية لأهل الدهر"⁽²²⁾.

ويعلل الخطابي⁽²³⁾ عجز البشر عن الإتيان بمثله قائلاً: "وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر: منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لها ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أوابها، والترقي في أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً"⁽²⁴⁾.

ثم يقال: أيجوز أن يكون الله تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله؟ يورد عبد القاهر الجرجاني هذا السؤال في دلائله ثم يجيب بالنفي ويعلل ذلك قائلاً: "لأنهم إن قالوا يجوز، أبطلوا التحدي من حيث إن التحدي كما لا يخفى مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف، ولا تصح المطالبة بالإتيان

22- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 169.

23- الخطابي: هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، أبو سليمان فقيه محدث، من أهل بست (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب) له معالم السنن في شرح سنن أبي داود، وبيان إعجاز القرآن، وإصلاح غلط المحدثين، وتفسير أحاديث الجامع الصحيح للبخاري، وغير ذلك، وله شعر جيد، توفي في بست 388هـ، خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، ط 7، 1986م: 2/273.

24- الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، سلسلة ذخائر العرب رقم 16، ط 2، 1387هـ/1968م، ص 26.

به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب ويظل بذلك دعوى الإعجاز أيضاً، وذلك لأنه لا يتصور أن يقال: إنه كان عجز حتى يثبت معجوز عنه معلوم، فلا يقوم في عقل عاقل أن يقول لخصم له: قد أعجزك أن تفعل مثل فعلي، وهو لا يشير له إلى وصف يعلمه في فعله ويراه قد وقع عليه. أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر: إني قد أحدثت في خاتم عملته صنعة أنت لا تستطيع مثلها، لم تتجه عليه حجة ولم يثبت به أن قد أتى بما يعجزه إلا من بعد أن يريه الخاتم ويشير له إلى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة، لأنه لا يصح وصف الإنسان بأنه قد عجز عن شيء حتى يريد ذلك الشيء ويقصد إليه ثم لا يتأتى له. وليس يتصور أن يقصد إلى شيء لا يعلمه وأن تكون منه إرادة لأمر لم يعلمه في جملة ولا تفصيل"⁽²⁵⁾.

هذا ومن المعلوم أن آيات التحدي موجهة للكفار من العرب المتقدمين في البيان والفصاحة، المتفوقين في التعبير والبلاغة، لأنه تحداهم بشيء يتقنونونه وطلب منهم الإتيان بشيء قد مهروا فيه، فكان عجزهم عن معارضة القرآن حجة عليهم ودليلاً واضحاً على أن القرآن كلام الله.

"هذا لأن التحدي لا يكون إلا للأقوياء في موضوع التحدي، فالمتحدي لا يتحدى إلا خصماً قويا متمكناً من الموضوع الذي يتحده فيه، ولا يعقل أن يتحدى القرآن خصماً ضعيفاً في موضوع التحدي، أو يتحدى روماً أو فرساً أو هندوداً أو غيرهم ممن ليسوا فرساناً في البلاغة وملوكاً في الفصاحة والبيان، لذا فإننا نحكم على الأجيال العربية التالية للعرب في عصر نزول القرآن منذ عصر التابعين وحتى قيام الساعة بأنها ضعيفة وعاجزة أمام القرآن، وإذا كان القرآن معجزاً للعرب جميعاً، فإنه معجز لكافة الأمم والشعوب والأقوام حتى قيام الساعة من باب أولى، كما هو معجز للجن وكافة المخلوقين"⁽²⁶⁾.

"وقد قامت الحجة على العالم بالعرب، إذ هم أهل اللسان وفرسان البيان ومظنة المعارضة، فلا تصدر المعارضة إلا من أهل الاختصاص"⁽²⁷⁾، كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام بالأطباء،

25- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تصحيح الشيخ محمد عبده، ووقف على تصحيحه محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1331هـ، ص 295.

26- انظر: صلاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص 70. بتصرف كبير.

27- نرى الجاحظ يدعي للعرب الفضل على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة، ويناطر في ذلك الشعبية، ويجهلهم ويسفه أحلامهم في إنكارهم ذلك، ويقضي عليهم بالشقوة وبالتهالك في العصبية، ويطنل ويطنب، ثم يقول: ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة، من القصيد والأرجاز، ومن المشور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق، من الديباجة الكريمة والرونق العجيب، والسبك والنعت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في السير والشيء القليل.

الجرجاني، الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز: لمحمد زغلول سلام: ص 118.

لأن معجزته كانت إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وفي معجزة موسى بالسحرة، لأن معجزته عليه السلام كانت في قلب العصا حية. ذلك لأن الله تعالى جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره؛ فكان السحر في عهد موسى قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في زمن محمد صلى الله عليه وسلم. وقد تقدم ذلك "(28).

"إن القرآن يحمل في بيانه الدليل الكافي على أنه ليس من كلام البشر، إذ لا معنى للمطالبة بالإقرار بمجرد التلاوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ (29) لا معنى لذلك إلا أن هذا المقروء عليهم كان هو في نفسه آية، ثم لا معنى لهذه المطالبة البتة إلا أن يكون في طاقة هؤلاء السامعين أن يميزوا تمييزاً واضحاً بين الكلام الذي هو من نحو كلام البشر، والكلام الذي ليس من نحو كلامهم "(30).

فإذا ثبت عجز العرب وهم أهل اللسان وفرسان البيان ثبت عجز غيرهم من المحدثين والمولدين وسائر من يكونون عرباً في اللسان دون الفطرة؛ فهم أبعد من العرب في أسباب العجز وأدنى إلى التقصير وأقرب إلى المهجنة(31). قال الباقلاني: "لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم أن يعرفوا إعجاز القرآن إلا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك، فإذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تحدوا على أن يأتوا بمثله وفرعوا على ترك الإتيان بمثله ولم يأتوا به، تبينوا أنهم عاجزون عنه، وإذا عجز أهل ذلك اللسان فهم عنه أعجز.

28- انظر: محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1،

1413هـ/ 1993م: 52/1 بتصرف كبير.

29- سورة التوبة، الآية: 6.

30- عدنان زرزور، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط 2، 1419هـ/

1998م، ص 155، نقلاً عن الأستاذ محمود شاكر.

31- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 7، 1410هـ/ 1990م، ص 28، فيقول الشيخ

مناع القطان: "إذا كان القرآن معجزاً للعرب بفصاحة ألفاظه وبلاغة أساليبه، وخفته على اللسان، وحسن وقعه في السمع، وأخذه بمجامع القلوب، فإنه معجز للبشر أجمعين بما تضمنه من الحقائق الثابتة، والتوجيهات السديدة، والأغراض السامية، والمقاصد النبيلة، والإخبار بأمور مغيبية لا تستقل المدارك الإنسانية بمعرفتها. وإذا كان العرب الذين يتكلمون اللغة العربية بفطرتهم، ويأتون من وجوه البلاغة بما يعجز عنه غيرهم عجزوا عن الإتيان بمثله فمن عداهم ممن لا يعرف لغتهم أعجز حتماً. وإذا فرضنا أن الأعجمي تعلم لغة العرب وأجادها، فقصارى ما يصل إليه في ذلك أن يكون مثل بلغاتهم الذين عجزوا عن الإتيان بشيء من مثل الكتاب الكريم، فيكون عاجزاً عن ذلك مثلهم، وبهذا يكون القرآن حجة على غير العرب من هذه الناحية أيضاً".

وكذلك نقول: إن من كان من أهل اللسان العربي إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء" (32).

فإن قيل: لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَكْفُرُ النَّاسُ بِإِيَّائِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (33)، بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة. وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً.

والجواب: "لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل؛ فيبقى أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر، قامت التراجم بيانه وتفهمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازجة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلّم لفظه وتعلّم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكّد القرائح فيه، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها، كما كلم أمته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلحاء" (34).

وقال بعض المحققين: ألا يدل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ (35) على أن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت للعرب خاصة؟ نقول: لا؛ لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة

32- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، عالم الكتب، ولم يذكر تاريخ الطبعة: ص 118.

33- سورة الأعراف، الآية: 158.

34- محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1378هـ/1959م: 10/3707.

35- سورة إبراهيم، الآية: 4.

واحدة ويُعدها لتهديب الأمم الأخرى، كما يعدّ فرداً واحداً منها لتهديب سائر أفرادها، ولما كانت الأمة العربية هي المختارة لتهديب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم - فقد وجب أن التهذيب الإلهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتتهيأ لأداء وظيفتها، وقد أتم الله نعمته عليها فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع، والله في خلقه شؤون⁽³⁶⁾.

فإن قيل: ولم لم يتحد غير العرب، حتى يكونوا محجوجين بالقرآن كذلك؟⁽³⁷⁾ قيل: "هل ينتظر أن ينزل القرآن بكل لغات الأرض ما كان منها وما سيكون إلى يوم الدين، لكي يتحدى غير العرب، وهل يتساقق هذا مع طبيعة الأشياء، ومع طبيعة الإيمان الذي أراه الله من الإنسان. أليس في لغات العالم لغة هي مثال اللغات، ينزل بها كتاب الله تعالى إلى الإنسان، وشعب هو من حيث الفطرة والموهبة والاستعداد مثال الشعوب، يحمل أعباء الرسالة، ولو للمرة الأولى على أقل تقدير ويذيعها في العالمين، يسع العجم ما وسع العرب، كما قال علماءنا الأوائل.

إن الله تعالى رفع القرآن عن أن يجعله أعجمياً، فلو كان يمكن في لسان العجم إيراد مثل فصاحته لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة، وأنه وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله إنه عربي مبين أنه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم ولا يحتاجون في تفسيره إلى من سواهم. ويبين ذلك أن كثيراً من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع في العربية.

ويبين هذا أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية، وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية، وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي يتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية.

إن مشكلة غير العرب مع الإسلام والإيمان بالقرآن والوحي تحل بمنتهى اليسر، إننا لا نخاطب هؤلاء بالإعجاز البياني، ولا ندعوهم إلى تذوق البيان القرآني، ولكن نخاطبهم بطريقة أخرى، هي أن نقيم

36- محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، 10/ 3707.

37- هذا التساؤل يورده من يرى أن القرآن لم يتحد سوى العرب، وذلك لأن آيات التحدي موجهة إلى كفار العرب، لكن قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَحْمَمَتِ الْإِلَاسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ سورة الإسراء، الآية: 88، صريح في إثبات عجز الإنس - عرباً وعجماً - والجن عن أن يأتوا بمثله، إلا أن بعضهم لا يعدها من آيات التحدي، بل هي لإثبات عجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وبالتالي إثبات مصدره الرباني.

لهم الدلائل الكثيرة من مضامين القرآن وموضوعاته، على أنه من عند الله تعالى، مثل اللفظات العلمية في القرآن، وأنباء الغيب، وتشريعات القرآن، وغير ذلك" (38).

قال القاضي عبد الجبار: "إن الجميع من العجم يعرف حال القرآن وما يختص به من المزية في الجملة بعجز العرب عن معارضته مع توفر الدواعي، وذلك مما لا يحتاج في معرفته إلى طريق التفصيل؛ فلا يمتنع منهم أن يعرفوا ذلك، يبين ما ذكرناه، أنهم لو علموا في بعض الأنبياء أنه حمل جسماً ثقيلاً وتعذر على غيره، لعلموا أنه معجز، وإن لم يعلم تفصيله، فكذلك يعلمون أنه أتى بكلام مخصوص من جنس كلامهم وتعذر عليهم، وهذا القدر يكفيهم، وذلك يتم لهم، وإن لم يعرفوا سببه.

فإن قيل: لعل العرب عارضوا القرآن وأتوا بمثل بعض سوره لكنه لم ينقل! أوجب بأنه لو جاز أن يكتنوا معارضة القرآن لجاز أن يكون قد خرج في ذلك العصر نبي آخر أو أنبياء، وتنزلت عليهم كتب، وكنتم الخبر فلم يظهر. وهذا محال وقد تقدم مثاله" (39).

فإن قيل: "وما يدريك أنه لن يعارض في مستأنف الزمان، إن لم يعارض الآن؟ قلت: لأنه لا احتياج إلى المعارضة أشد مما في وقت التحدي وإلا لزم تقرير المبطل المشبه للحق وحيث لم تقع المعارضة وقتئذ علم أن لا معارضة وإلى هذا أشار الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾.

على أن أمر التحدي قائم على السابقين واللاحقين، وآية النبي صلى الله عليه وسلم باقية ما بقي الناس، وهي شاهدة على أن هذا القرآن من عند الله تعالى" (40).

فإن قيل: لم ذكر الجن في الآية الكريمة، وهل هم من أهل اللسان حتى يتوجه إليهم التحدي بالقرآن العربي؟ قيل: التحدي إنما وقع للإنس دون الجن، لأنهم ليسوا من أهل اللسان العربي، وإنما ذكروا في الآية تعظيماً لإعجازه، لأن للهيئة الاجتماعية ما ليس للأفراد. وأيضاً فإن القرآن مشتمل على الإخبار بالغيوب التي هي من وجوه إعجازه، والجن أقدر من الإنس في معرفة بعض الغيوب وخاصة غيب الماضي والحاضر.

38- انظر: صلاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص 118 باختصار، نقلاً عن: مدخل إلى التفسير لعبدان زرزور، ص 186-188، الباقلائي، إعجاز القرآن، ص 48.

39- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، 16/295.

40- النيسابوري، غرائب القرآن ورجائب الفرقان، على هامش جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، 1/183.

قال القاضي عبد الجبار في بيان ذلك: "قد بينا أنا نعتبر في كون القرآن ناقصاً للعادات العادة المعروفة، دون ما لا نعرفه من العادات، فإذا لم يكن لنا في العقل طريق إلى معرفة الجن أصلاً، لأنهم لا يشاهدون ولا نعرف أحوالهم بغير المشاهدة، فيجب أن لا نعتبر أحوالهم وعاداتهم، لأن اعتبار العادة فرع على معرفة أهل العادات، فإذا صح ذلك وعلمنا أنه لا معتبر بذلك، فقد كفانا في معرفة كون القرآن معجزاً بخروجه عن عادة من تعرف عادته، ثم إذا علمنا بذلك صحة نبوته، وخبرنا صلى الله عليه وسلم بالجن وأحوالهم وأنهم كالإنس في تعذر المعارضة عليهم، علمنا أن حالهم كحال العرب لأن العلم بإعجاز القرآن موقوف على هذا العلم" (41).

فإن قيل: وهل التحدي موجه إلى الملائكة أيضاً؟ قلنا: إنه اقتصر في الآية على ذكر الإنس والجن لأنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة. قاله الكرمانى (42).
ثانياً: حال العرب وقت نزول القرآن:

خصّ الله تعالى العرب من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم، وقد كانوا موصوفين بزرانة الأحلام ووفارة العقول، وقد وهبهم الله تعالى فصاحة اللسان وقوة البيان، وقد كان فيهم الخطباء المصاحف والشعراء المفلقون، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجذل واللد، فقال تعالى: ﴿ مَا صَرَّيْتَهُ لَكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (43)، وقال عز وجل: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدًّا ﴾ (44)، فكانت لهم الحججة البالغة والقوة الدامغة، وقد تكلموا في فنون القول، فلم يدعوا عظيماً ولا حقيراً، ولا غثاً ولا سميناً إلا وتكلموا فيه، فجاء نظمهم ونثرهم في وصف الخيل والليل والخمر، وغير ذلك، ومع ذلك أحرص القرآن فصحاءهم وأسكت بلغاءهم وأذهل عقلاءهم، فوقفوا أمامه مبهورين متحيرين، بل تخبطت فيه أقوالهم وكثر حوله لغطهم؛ فوصفوا القرآن بأنه إفك مفترى، ووصفوه بأنه أساطير الأولين وغير ذلك، وقد سجل القرآن هذا التخبط، كما سجل ما قالوه عن القرآن وصاحب الدعوة مبيناً وكذباً وافتراءً؛ فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا نُتِلُّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إفكٌ مُفْتَرَىٰ ۗ

41- القاضي عبد الجبار المعتزلي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، 16/ 297 ببعض تصرف.

42- انظر: جلال الدين السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات رضي، بيدار

عزيمي، ط 2، 1343 هـ 4/ 22؛ القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، 16/ 297 ببعض تصرف.

43- سورة الزخرف، الآية: 58.

44- سورة مريم، الآية: 97.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٥﴾ وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَحِمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ (46)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آفَاكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (47) ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُعْمَلُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٧﴾.

ومع نزول آيات التحدي وتسجيلها عجزهم المرة تلو المرة، لم يستطع العرب المعارضة، ولو كانوا قادرين عليها ما تركوها ولجأوا إلى بذل مهجهم وأموالهم، وما خرجوا من ديارهم لقتال النبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن به، وكان يكفيهم - لو كان في مقدورهم - أن يؤلف أحد شعرائهم أو خطبائهم كلاماً يماثل سورة واحدة من سور القرآن، ولو كانت قصيرة، فينتهي بذلك أمره وتبطل بذلك حجته، ولكنهم لم يفعلوا، وهم أهل أنفة وحمية، فدل ذلك على عجزهم.

قال الجاحظ (48): "بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له وقتل من عليتهم وأعلامهم وبنو أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة أو آيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعاً لعجزهم عنها تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا. قال: فهاتوها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابره فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدل ذلك على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستحالة لغتهم وسهولة ذلك عليهم

45- سورة سبأ، الآية : 43.

46- سورة الأنبياء، الآية : 5.

47- سورة الفرقان، الآيتان: 4، 5.

48- الجاحظ: هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، الليثى، أبو عثمان الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة، توفي 255هـ، فلج في آخر عمره، وكان مشوه الخلق، ومات والكتاب على صدره. له تصانيف كثيرة، منها الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير وغير ذلك، الزركلي، الأعلام، 5/ 74.

وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته؛ لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقلوبه، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال. وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنشور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم، فمحال - أكرمك الله - أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين مع التقرع لنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة. وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاث وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه" (49).

"وقد مرّت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا أدوار مختلفة، بين علو ونزول، واتساع وانقباض، وحركة وجود، وحضارة وبداءة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه، يطل على الجميع من سائه، وهو يشع نوراً وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقة وجزالة، ويرف جدة وطلاوة. ولا يزال كما كان غضا طربا يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة، قائلاً في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز ووصلته: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾" (50).

كانت تلك دلائل الأحوال على عجز العرب عن معارضة القرآن، وعدم استطاعتهم أن يأتوا بأقصر سورة من مثله. أما دلائل الأقوال فكثيرة، "منها حديث ابن المغيرة: روى أنه جاء حتى أتى قريشاً فقال: إن الناس يجتمعون غداً بالموسم، وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم؟ فقالوا: مجنون يخنق؛ فقال: يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحاً فصيحاً عادلاً، فيكذبونكم! قالوا: نقول: هو شاعر. قال: هم العرب وقد روى الشعر وفيهم الشعراء، فيكذبونكم! قالوا: نقول: هو كاهن. قال: إنهم لقوا الكهان فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة فيكذبونكم! ثم انصرف إلى منزله فقالوا:

49- الحافظ جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، 4/6، (نقلًا عن الجاحظ).

50- سورة الإسراء، الآية: 88، الشيخ الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، ط 3،

صبأ الوليد - يعنون أسلم - ولئن صبأ لا يبقى أحد إلا صبأ، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة: أنا أكفيكموه. قال: فأتاه محزوناً فقال: ما لك يا ابن أخ؟ قال: هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك، تستعين بها على كبرك وحاجتك. قال: أولست أكثر قريش مالا؟! قال: بلى ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه. قال: والله ما يشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضول؟!، ثم أتى قريشاً فقال: أتزعمون أني صبأت ولعمري ما صبأت، إنكم قلت: محمد مجنون، وقد ولد بين أظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً، فهل رأيتموه يخنق قط؟، فكيف يكون مجنوناً ولم يخنق قط؟، وقلت: شاعر وأنتم شعراء، فهل أحد منكم يقول ما يقول؟، وقلت: كاهن، فهل حدثكم محمد في شيء يكون في غد إلا أن يقول إن شاء الله؟ قالوا: فكيف تقول يا أبا المغيرة؟ قل: أقول هو ساحر؛ فقالوا: وأي شيء من السحر؟ قال: شيء يكون ببابل، من حذقه فرق بين الرجل وامرأته والرجل وأخيه، أليس مما تعلمون أن محمداً فرق بين فلان وفلانة زوجته، وبين فلان وابنه، وبين فلان وأخيه، وبين فلان ومواليه، فلا ينفعهم ولا يلتفت إليهم ولا يأتهم؟ قالوا: بلى فاجتمع رأيهم على أن يقولوا إنه ساحر، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول. وانصرف، فمر بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منطلقاً إلى رحله، وهم جلوس في المسجد فقالوا: هل لك يا أبا المغيرة إلى خير؟ فرجع إليهم فقال: ما ذلك الخير؟ فقالوا: التوحيد، قال: ما يقول صاحبكم إلا سحراً وما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره، وعبس في وجوههم ويسر، ثم أدبر إلى أهله مكذباً، واستكبر عن حديثهم الذي قالوا له وعن الإيوان، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ... ﴿١٩﴾﴾ الآيات " (51)، (52).

ومنه ما رواه محمد بن كعب القرظي قال: حَدَّثْتُ أَنْ عَتَبَةَ بِنَ رِبْعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا حَلِيماً - قَالَ يَوْمًا: أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأَكْلِمُهُ فَأَعْرُضُ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهَا بَعْضُهَا فَنَعْطِيهِ أَيُّهَا شَاءَ؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ هِزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَرَأَوْا أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْثُرُونَ، قَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ! فَمَقَامَ إِلَيْهِ - وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ - فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَّةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَفَرَقْتَ بَيْنَ جَمَاعَتِهِمْ وَسَفَهَتِ أَحْلَامَهُمْ وَعَبَتِ آلَهُتَهُمْ، وَكَفَرْتَ مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرُضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهَا بَعْضُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْ. قَالَ: إِنْ كُنْتُ إِنَّمَا تَرِيدُ الْمَالَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ

51 - الجرجاني، الرسالة الشافية، ص 122.

52 - سورة المدثر، الآية: 18-25.

هذا القول، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفاً سودناك حتى لا تقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رثياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه، أو لعل هذا شيء جاش به صدرك، فإنكم لعمرى بني عبدالمطلب تقدرون من ذلك على ما لا تقدر عليه؛ حتى إذا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوقد فرغت؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: قل. قال: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿حَمْدٌ ۝١ نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كُنْتُ فُصِّلْتُ ءَابْتَهُ. قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (53) ثم مضى فيها يقرؤها، فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها، يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد، ثم قال له: قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك! فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس قالوا: ما وراءك؟ قال: ورائي أي سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ! فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهره على العرب به فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به. قالوا سحرك بلسانه! قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم (54).

ومنه ما جاء في حديث أبي ذر في سبب إسلامه: رُوي أنه قال: قال لي أخي أنيس: إن لي حاجة إلى مكة، فانطلق فراث، فقلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلاً يقول: إن الله تعالى أرسله. فقلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر ساحر كاهن. قال أبو ذر: وكان أنيس أحد الشعراء قال: تالله لقد وضعت قوله على أقرء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون (55).

53- سورة فصلت، الآيات: 1-4.

54- عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، بتحقيق طه عبد الرؤف سعد، طبعة جديدة، دار الجيل، بيروت، ولم يذكر تاريخ الطبعة: 1/261-262. وذكر هذه الرواية أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، حققه وخرّج أحاديثه عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية و سليمان مسلم الحرش، دار الطيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1417هـ/1997م: 168/7.

55- حديث إسلام أبي ذر، روي من طرق وبألفاظ مختلفة، وبهذا اللفظ رواه مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه، من طريق حميد بن هلال، عن عبد الله ابن الصامت، عن أبي ذر.

ومن ذلك ما روي أن الوليد بن المغيرة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (56) فقال: أعد، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر (57).

ثالثاً: دلالة التحدي على إعجاز القرآن:

من المعلوم بداهة أنه ما كان لعاقل مثله صلى الله عليه وسلم أن يتحدى العرب هذا التحدي بالقرآن لو لم يكن عالماً موقناً بأن الإنس والجن لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فلو كان هو الذي ألفه ووضعه لمصلحة الناس برأيه - كما ادعى بعض المعجبين بعقله وذكائه وعلو أفكاره - لكان عقله وذكاؤه وعلو أفكاره مانعات له من هذا الجزم بعجز عقلاء الخلق من الإنس والجن عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به. فمن من العقلاء يحكم بأن ما يأتي به لا يستطيع غيره الإتيان به، إلا إذا كان وحياً من خالق القوي والقدر سبحانه؟ ولو فرض أنه كان يعلم ما في قدرة أقرانه وأهل زمانه، فكيف يحكم على غيرهم ممن لم يأتوا بعد؟ أليس في هذا التحدي دليل على إعجاز القرآن الكريم وأنه من عند الله تعالى. فهذه آية بينة للعقل ودليل واضح على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان موقناً بأن القرآن من عند الله تعالى، وأنه هو كغيره لا يقدر على الإتيان بسورة مثله.

وقد كان مشركو مكة يوقنون - بما أتوا من الفهم والذكاء - أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من كلام محمد صلى الله عليه وسلم، ولا هو بالذي يستطيع الإتيان بمثله في نظمته وفصاحته وبلاغته، ولا في علومه وحكمه ومعارفه، إذ لو كان مثله مما تصل إليه قدرته لظهر على لسانه شيء من مثله أو ما يقرب منه فيما مضى من حياته، وهو نحو أربعين سنة. وقد أمره الله تعالى أن يقيم عليهم تلك الحججة بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (58) وما كان كفر أمثال هؤلاء إلا عن كبر

56 - سورة النحل، الآية: 90.

57 - أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلنجي،

دار الكتب العلمية، بيروت، 1408هـ/1988م: 2/75.

58 - سورة يونس، الآية: 16.

وعناد ومكابرة للحق. قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ (59) على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل نزول القرآن عليه يذكر في فحول فصحاءهم ولا في وسطهم، بل لم يكن يعدّ منهم، وإنما صار كلامه ممتازاً بالفصاحة والبلاغة بما استفاده من وحي القرآن، كما استفاد من دونه منه. على أنه ظل ككلام غيره من البشر في البعد عن مشابهة نظم القرآن وأسلوبه وتأثيره، وإن كان كلامه صلى الله عليه وسلم أبلغ الكلام بعد كلام الله تعالى.

نتائج البحث:

أولاً: جاء التحدي بالقرآن صريحاً في كتاب الله تعالى، وأخبر الله تعالى أن هذا الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه، وأنه كافٍ في الدلالة على صدق من نزل عليه وعلى نبوته، يقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثانياً: وقد نزل الله المتحدين في التحدي على ثلاث مراتب: الأولى: أن يأتوا بحديث مثله. والثانية: أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، والثالثة: أن يأتوا بسورة مثله، ثم قطع لهم بأنهم لن يفعلوا، ولو استعانوا بمن شاءوا، فأخبر خيراً جازماً قاطعاً أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الأبد، ودهر الدهرين. وقد أكد الله في آية الإسراء أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وكذلك وقع الأمر ولم يعارض من لدن عهده صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا ولا يمكن أن يقع.

ثالثاً: إن في هذا القرآن سرّاً خاصاً، يشعر به كل من يواجهه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن. يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود.

رابعاً: كان التحدي في الآيات الكريمة لإثبات عجز الكفار عن الإتيان بالمطلوب، وإثبات العجز ليس هدفاً بحد ذاته، وإنما هو وسيلة إلى غاية سامية، وهي إثبات أن القرآن كلام الله، وأن محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإيمان الكفار بذلك، ودخولهم في الإسلام.

خامساً: التحدي بالقرآن متواتر، وعجز المتحدين به أيضاً متواتر، إذ لو صدرت منهم معارضة لذلك لنقل واشتهر وتواتر، بل كان أشهر من القرآن نفسه. فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة منه متواتر، بتواتر القرآن، وتواتر آياته بينهم، وتواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضته صلى الله عليه وسلم وإبطال دعواه.

سادساً: وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر أهمها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اثتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوها إلى أن يأتوا بكلام مثله.

سابعاً: وقد قامت الحجة على العالم بالعرب، إذ هم أهل اللسان وفرسان البيان ومظنه المعارضة، فلا تصدر المعارضة إلا من أهل الاختصاص، كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام بالأطباء، وفي معجزة موسى عليه السلام بالسحر.

ثامناً: فإذا ثبت عجز العرب وهم أهل اللسان وفرسان البيان، ثبت عجز غيرهم من المحدثين والمولدين وسائر من يكونون عرباً في اللسان دون الفطرة، فهم أبعد من العرب في أسباب العجز وأدنى إلى التقصير وأقرب إلى الهجنة.

تاسعاً: إن مشكلة غير العرب مع الإسلام والإيمان بالقرآن والوحي تحل بمتهمي اليسر، إننا لا نخاطب هؤلاء بالإعجاز البياني، ولا ندعوهم إلى تذوق البيان القرآني، ولكن نخاطبهم بطريقة أخرى، هي أن نقيم لهم الدلائل الكثيرة من مضامين القرآن وموضوعاته، على أنه من عند الله تعالى، مثل اللفقات العلمية في القرآن وأنباء الغيب وتشريعات القرآن وغير ذلك.
